التراث الثقافي ومعطيات الحضارة الأندلسية

مبارك جعفري بن الصالح

جامعة تلمسان

الملخص: عرفت الأندلس تاريخاً متميزاً في كل مظاهر العيش صغيرها وكبيرها، فتحمل الأندلسيون على اختلاف أصولهم وعقائدهم مسؤوليات تدبير شؤون الحكم، وتلاقو في مجلس علم معلمين ومتعلمين، وكتبوا وألفوا فيما هو عام، يحدوهم حب العلم، ويسعون إلى نشر آثاره، أو في ما هو خاص، ينوون به عقول ذوي المعتقد، كل في نحلته، ويهدونهم السبيل. وتنافسوا في سبل العيش في الأسواق، ونهضوا بشأن التجارة، وزرعوا الأراضي وغرسوا، الجنان وهذبوا البساتين، وحفروا الآبار، ورفعوا البنيان، وتساكنوا وتجاورا في نفس الرباع، وأحيانا في نفس الدور..

وباختصار نسجوا نسجاً حضارياًمختلف الألوان منسجم التركيبة..إنها مشاركة انمحت فيها الخصوصيات الدينية والعرقية وتوارت فيها العصبيات زمناً كان كافياً لبناء مجتمع يعتبر بحق بما صنع في العلم والرجال هو المثال الذي يجب أن نضعه دوماً نصب أعيننا وكان هذا بفضل ما امتزج من الجانب التاريخي والحضاري العمراني والعلمي الفكري.

Abstract I knew of Andalusia outstanding history in all aspects of life, large and small, bear Andalusians of different origins and beliefs responsibilities of managing the affairs of governance, Tlaqo in the House of science teachers and learners, and wrote and familiar with is the year, hold out the love of learning, and seeking to spread its effects, or in what is special, intend to do with the minds of belief, all in Nhalth, and Ahdonhm way. And competed in livelihoods in the markets, and stood up on trade, and planted land and planted, Jinan and Hzbwa orchards, and dug wells, and raised the architecture, and Tsaknua Tgeora and at the same weightlifter, and sometimes in the same role In short weave woven Houdaraamokhtlv colors harmonious Turkabh..anha Post perished in religious and ethnic particularities and eclipsed the partisanship for so was enough to build a society that is rightly considered as made in science and men is an example which should put it always in mind and this was thanks to the mixed of historical and cultural side of Urban scientific and intellectual.

في ثنايا التاريخ الإسلامي في أوربا، كانت وقفة مع جنة الله في أرضه.. تلك الجنة الغناء، والبساتين الخضراء، والجداول والأنهار التي ما عرَف العالمُ في ذلك الوقت بقعةً على وجه الأرض أجمل منها.

هي لم تكن طبيعة فقط، بل كانت منارة العلم يقصدُها طلابُ العلم في جميع أرجاء المعمورة في جميع مناحي العلوم.

فكّر العرب في تحرير أسبانيا بعد أن طردوا البيزنطيين من شمال أفريقيا، وكانت أسبانيا قبل الفتح قد ملكها الرومان حتى القرن الخامس للميلاد، ثم انقض الوندال والآلان والسويف، الذين هم من القبائل البربرية الجرمانية على أسبانيا، ولم يلبث القوط أن قهروهم واستولوا على أسبانيا في القرن السادس للميلاد وظلوا سادتها إلى أن جاء العرب. وقد اختلط القوط بالسكان الأسبان – الرومانيين، فاتخذوا اللاتينية لغة لهم، وتحولوا من الآريوسية إلى المذهب الكاثوليكي، وكان اختلاط القوط باللاتينيين قبل حركة التحرير العربي مقتصراً على علية القوم، وكان سكان البلاد الأصليون من الأرقاء، والذين كانوا مستعدين لقبول أي سلطان عليهم، كما أن التنافس على عرش أسبانيا أدى إلى نزاع سياسي اجتماعي، وفتن داخلية، وفقدان الروح العسكرية، وفتور عن الدفاع بين الأهلين المستعبدين، وكان من جراء ذلك تفرق الدولة القوطية وسهل للعرب تحرير أسبانيا[1]

ونتيجة للتعاون بين العرب والبربر بعد تحرير شمال أفريقية، دخل جيش مؤلف من اثني عشر ألف جندي بلاد أسبانيا في سنة 92هـ/ 711م وتم فتحها بقيادة طارق ابن زياد ثم القائد موسى بن نصير 93هـ/ 712م [2]، وقد وصفها

---

[1]- لوبون غوستاف (حضارة العرب). ص 263

[2]- ابن عذاري أبو عبدالله محمد المراكشي (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب). ص17

القائد العربي في رسالة للخليفة الأموي أنها: (شامية في طيبها وهوائها يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها) [1]

إن من الظواهر التي تلفت النظر أن العناية بالتراث الأندلسي، وبحياة العرب والمسلمين في الأندلس لم تنقطع، على الرغم من مرور أكثر من خمسة قرون على الغياب العربي عن تلك البلاد. لقد اهتم العرب في أقطارهم القريبة من الاندلس والبعيدة عنها بذلك التراث، وتلك الحضارة المتألقة، ولم يلبث المستشرقون أن انتبهوا إلى الثراء العظيم في التراث الأندلسي الباقي من المخطوطات العربية الأندلسية.

ولئن ضاع من ذلك التراث الأندلسي الكثير لقد بقي منه ما يُسهم في البناء الثقافي والحضاري من جهة، وما يدلّ على عظمة دور الأندلس في أرض أوربا من جهة أخرى. والذي صدر من الكتب الأندلسية في الموضوعات المختلفة يضع ذلك القطر في الأقطار ذات الأهمية الحضارية باعتبار ما مضى أولاً، وباعتبار ما نستفيد منه ونرجع إليه إلى اليوم ثانياً.

ويُسعد النفس أن جمهرة المستشرقين الإسبان، والبرتغاليين، وكثرة من المثقفين والباحثين صاروا يعدون المدّة العربية الإسلامية جزءاً مكمّلاً لشخصيتهم، وجزءاً من ثقافتهم وحضارتهم. وهذا اعتراف حضاري تأخر كثيراً، ولكنّ ظهوره يعدّ تطوراً إيجابياً ونظرة تقترب من الموضوعية عن الحضارة العربية والثقافة الإسلامية.

واستطاع هذا القطر النائي أن تكون له خصوصية في أكثر من جانب من جوانب الفكر والفن والعلم والأدب، ووجوه الثقافة المختلفة، ووصلت تلك الخصوصية إلى أشياء في العادات والتقاليد.

---

[1]- لوبون غوستاف (حضارة العرب). ص266

وأثّر الاندلسيون على امتداد تاريخ الحضارة العربية الإسلامية مثلما تأثروا وأثبتوا هويّتهم الشخصية – عند أهل المشرق – بل كانوا مرجعاً مهمّاً في أمور مختلفة كثيرة في جوانب العلوم والفنون والآداب وسائر النشاطات الثقافية والفكرية والحضارية. فيا ترى فيما يتمثل هذا الأثر من الناحية التاريخية والعلمية الفكرية والعمرانية الحضارية؟.

1- النظـــــــــــــرة التاريخية

حين دخل الفاتحون العرب إلى الأندلس كان هدفهم نشر الدّعوة، وتبليغ الرسالة، وحملوا معهم كل ما كان لديهم من ألوان الثقافة والعلم والفكر، وانتشرت كتاتيب المؤيدين واتسعت حلقات الفقهاء والعلماء لطلاب العلم من كل جنس ودين. وساعد على ذلك تسامح الإسلام ومعاملة سائر المواطنين بالعدل والحسنى.

وصارت بلاد الأندلس مقصداً للطامحين إلى المجد والمال من أهل العلم والتجارة والصنائع. واستقدم الأندلسيون بعض الشخصيات المؤثرة في الحياة الأدبية والعلمية والفنية مثل (زرياب) تلميذ آل الموصلي، وأبي علي القالي البغدادي.

وبلغت الأندلس الأوج أيام عبد الرحمن الناصر(300-350هـ) واشتهرت المكتبة العظيمة التي أنشأها بإشراف ولي عهده الحكم المستنصر (350-366هـ). حتى قال ابن خلدون: " اجتمعت بالأندلس لعهده خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده" [1].

وصارت الاندلس في عهد الطوائف أندلسات كثيرة، وراجت سوق العلوم والفنون والآداب، متابعة لما كان، أو محاولة من حكام دول الطوائف لتكون لهم

[1]- محمد رضوان الداية (في الأدب الأندلسي). ص43.

سابقة في هذا الجانب الثقافي. وفي كتب التراجم إشارات كثيرة إلى كتب ألّفت وأهديت إلى أولئك الحكّام وطرزت بأسمائهم: في الآداب والعلوم والفلسفة، والطب، والصيدلة..... إلى غير ذلك.

وظلت الحركة العلمية والأدبية والفلسفية مطّردة النمو في عصر دولتي المرابطين والموحدين. وكان للأندلسيين أثر في المغرب، ثقافياً وفكرياُ في تناسق وتكامل.

وعلى الرغم من انحصار دولة غرناطة الباقية في حيّز محدود من أرض الأندلس واستمرّت الحركة العلمية والأدبية والحضارية عامة على حالها من النشاط والحيويّة، بل ازدادت تركيزاً بانضمام كثير من العلماء والأدباء الذين سقطت بلادهم إلى أهل دولة غرناطة، في ظل سلاطين بني الأحمر الذين اهتموا بهذه الجوانب، وكان بعضهم مشاركاً في الفقه والأدب، وخلف بعضهم دواوين شعرية مثل يوسف الثالث وغيره. [1]

2- النظرة العلميـــــــــــــــة والفكرية

أثبت دارسو تاريخ العلوم المختلفة أن الأندلس أسهمت في حركة التقدم الحضاري على كل صعيد. ومن يتابع هذه الحركة منذ أيام الدولة الأموية إلى ما بعد سقوط غرناطة يلاحظ: إسهام الأندلسيين في ما كان يدعى علوم الأوائل من الرياضيات والفلك والفلسفة. وظهرت فيهم أسماء لامعة، ونسبت إليهم نظريات وأدوات تطبيقات علمية بارعة، ونذكر هنا –على سبيل التمثيل الذي قد يكون غريباً– أن القلصادي كان من علماء الرياضيات البارعين [2]**، ووصل صيته إلى المغرب والمشرق، علماً أنه أدرك أواخر أيام الإسلام في الأندلس، وتوفي سنة**

---

[1]- المصدر نفسه. ص44

[2]- المصدر نفسه. ص 43-45

(791هـ) في بجاية في إفريقية (هي الآن في الجزائر)، وذلك قبل سقوط الأندلس بنحو سبع سنوات.

وازدهر الطب في الأندلس، بل إن ازدهاره أدّى إلى ظهور أُسر اشتهرت بهذا العلم وبرعت فيه، وتركت آثاراً تأليفية مهمّة كأسرة بني زُهر الإشبيليين والذين سيذكر لهم مشاركة مهمة في الشعر وفنّ التّوشيح، وشخصيات مؤثرة في تاريخ الطب عند العرب، كالزهراوي صاحب الاستنباطات والاكتشافات، والذي سارت كتبه، وترجمت إلى لغات كثيرة (ت 404هـ)، وقد ألّف الزهراوي موسوعته الطبية: (التصريف لمن عجز عن التأليف) في ثلاثين جزءاً.

أما بنو زهر فتسلسل من مشهوريهم عبد الملك وابنه أبو العلاء، وابنه عبد الملك، وابنه أبو بكر بن زهر. وظهر في هذا البيت أطباء آخرون وطبيبات.

وبرع الأندلسيون في علم الصيدلة وصناعة الأدوية، وأسهموا في فصل هذا العلم عن علم الطبّ. كما نبّهوا في دراسة النباتات الطبيّة، وبرز منهم (عشّابون) ذوو أهمية عربية وعالمية، وفي هؤلاء العلماء بالنبات والأعشاب ابن الرومية الإشبيلي (ت637هـ) وتلميذه ابن البيطار الذي يوصف بأنه أعظم العشابين والصيادلة أندلسيين وغير أندلسيين، وهو صاحب كتاب (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية) والمشهور باسم: مفردات ابن البيطار (توفي سنة سنة 646هـ بدمشق) . [1]

وأثمرت جهود العرب في تطوير علم الطب وتأثرت ثقافة الغرب الطبية تأثراً عميقاً بما اقتبسه من العرب في هذا المضمار.

والعرب أول من مارسوا عمليات الجراحة في العالم إطلاقاً، ووضعوا المؤلفات فيها وفي طرقها، والأمراض التي يجب استئصالها والآلات والأدوات

[1]- المصدر نفسه. ص45

التي تستعمل[8] [1]، وهم أول من اكتشفوا وسائل التخدير، وأنشأوا المستشفيات، وقسموها قسمين: قسم للرجال والنساء، وقسموا كل قسم إلى أقسام على حسب المرض، وأقاموا المعازل لعزل المرضى المصابين بأمراض معدية بل أن للمسلمين الفضل في إنشاء المستشفيات المتنقلة[2].

وأنجبت الأندلس أشهر جراح عربي هو أبو القاسم الزهراوي سنة 427هـ/ 1035م فكان طبيباً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وله تصانيف في الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بـ (الزهراوي) ومن مؤلفاته الأخرى كتاب (التصريف) [3] ويذكر الدوميلي أنه (أشهر أطباء الأندلس وأعظم أطباء المسلمين أيضاً.. وكان أعظم الجراحين. وكتابه (التصريف) عبارة عن دائرة معارف طبية كبيرة، ويمكن أن يميز وفي هذا الكتاب قسم في الطب وقسم في الصيدلة وقسم في الجراحة طبع في ثلاثة أجزاء حصلت على أعلى درجات التقدير في أوربا[4] وترجم إلى العبرية واللاتينية والانكليزية، وأعيد طبع النص العربي في الهند سنة 1908 [5]، والزهراوي أول من ربط الشرايين واستأصل حصى المثانة في النساء عن طريق المهبل وأول من أوقف النزيف ونجح في عملية شق القصبة الهوائية، وبحث في التهاب المفاصل، واكتشف آلة لتوسيع باب الرحم للعمليات ولقب بـ (أبو الجراحة).

ومن أطباء الأندلس المشهورين أحمد بن يونس بن أحمد الحراني الذي تولى إقامة (خزانة للطب لم يكن قط مثلها، ورتب لها اثنى عشر طبيباً، وكان

---

[1]- المقري أحمد بن محمد (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب). ص247

[2]- المصدر نفسه. ص247.

[3]- توفيق عزيز: المعجم الفرنسي ذات الأصل العربي ص37

[4]- لوبون: حضارة العرب ص277.

[5]- المصدر نفسه ص582

يعالج المحتاجين والمساكين من المرض). وكان يشارك الحراني عدد من الأطباء في القيام على خزانة الطب (الصيدلية) فقد كان (ديوان الأطباء) فيه أسماؤهم ومرتباتهم.

كما اشتهر أطباء الأندلس بطب الأسنان وجراحتها، وفي تركيب الأدوية، وأشهر من برز فيهم في هذا العلم ابن البيطار.

وأما في مجال علم الفلك والهندسة والرياضيات عامة فقد توصل علماء العرب في الأندلس إلى حقائق علمية رائدة، في علم الفلك (علم الهيئة) منهم صاحب القبلة أبو عبيدة البلنسي (295هـ- 907م) الذي قال بكروية الأرض واختلاف المناخ في أنحائها.

إن اهتمام العرب في الأندلس بالفلك كان مقتصراً على رصد الكواكب وحركاتها وعلاقتها بالكسوف والخسوف، وكذلك لمعرفة علاماتها بالحرب والسلم والظواهر الطبيعية، كما أن ارتباط بعض أحكام الدين الاسلامي بالظواهر الفلكية جعل العرب يهتمون بأمور علم الفلك، فاقتضى معرفة المواقع الجغرافية للبلدان، ومركز الشمس في البروج، وذلك لاختلاف أوقات الصلاة ومعرفة سمت القبلة.

وطبق العرب النظريات الهندسية على فن البناء فشيدوا الأبنية التي تميزت بالفخامة والاتقان والمتانة كالمدن والقصور والجوامع، ومنها مدينة الزهراء وجامع الزهراء وقصور الحمراء، والنافورات المائية، بالاضافة إلى عنايتهم بالنقوش والزخارف، كما اهتموا بهندسة الري أيضاً وذلك لأن تنظيم الري يتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية الماء وسرعة مجراها، ومواد البناء وطرق بنائها.

أما فيما يخص اهتمامات العرب في الأندلس بالنبات فيرجع إلى القرن الأول للهجرة فقد عني علماء النبات العرب بوضع الأسماء للكثير من النباتات، فوضع الطبيب الأندلسي ابن جلجل كتاباً عن الأشياء التي أغفلها غيره، والحق هذا الكتاب بكتاب ابن باسيل المترجم فجاء الكتابان مؤلفاً كاملاً، وسيراً على

هذا المنهج التجريبي استطاع العلماء العرب دراسة الكثير من النباتات الطبيعية التي لم يسبقهم إلى دراستها أحد وأدخلوها في العقاقير الطبية[1]. واستطاعوا أيضاً أن يستولدوا بعض النباتات التي لم تكن معروفة أيضاً كالورد الأسود، وأن يكسبوا بعض النباتات خصائص العقاقير في أثرها الطبي [2].

ومن مشاهير علماء العرب في النبات في الأندلس أبو جعفر محمد بن أحمد الغافقي (ت561هـ/ 1160م) كان أعلم عصره بالأدوية المفردة ومنافعها وخواصها، له كتاب في الأدوية المفردة وقد وصف النباتات في غاية الدقة بالاضافة إلى أنه ذكر أسماءها باللغة العربية واللاتينية والبربرية، فعد من أعظم الصيدليين أصالة وأرفع النباتيين مكانة في العصور الوسطى، وقد أخذ منه ابن البيطار نصوصاً كثيرة[3].

وظهرت الدراسة الفلسفية والمنطقية في الأندلس وإن تأخرت عن مثيلاتها في المشرق (أول من أظهر الفلسفة وكان له رأي بن مسرّة (ت 319هـ)). ونبّه صاعد الأندلسي في كتابه (طبقات الأمم) على المشتغلين بالمنطق من الأندلسيين، والمشتغلين بالفلسفة.

ولا يغيب على الذّاكرة أعمال ابن السيّد البطليوسي، وابن باجة، وابن الطفيل وابن رشد، ولا ينسى أثر كثير منهم في الفلسفة العربية خاصّة وفي الفلسفة الأوربية، وخصوصاً ابن رشد وأتباعه من (المدرسة الرشدية).

---

[1]- المصدر نفسه 273

[2]- توفيق الطويل: العرب والعلم في عصر الاسلام الذهبي ص43

[3]- ابن أبي أصيبعة: عيون الأخبار في طبقات الأطباء ص500، الدوميلي: العلم عند العرب ص401

ويرع الأندلسيون في علم الجغرافية ووضعوا مؤلفات تشمل بلاد الأندلس وتوضح خصائصها وبلدانها وما تشتهر به من طبيعة ونتاج. وأصدروا مؤلفات عن بلدان أخرى في الغرب والمشرق.

ويبرز فيهم أحمد بن محمد الرّازي (ت344هـ) وهو مؤرخ جغرافي. وأبو عبيد البكري صاحب (المسالك والممالك)، وأحمد بن عمر العذري الدّلائي (ت476هـ)، ومحمد بن أبي بكر الزهري. ومن الكتب التي قدّم لها مؤلفوها بمقدمات جغرافية كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)، وكتاب (المغرب في حلى المغرب) لابن سعيد.

وكان للأندلس مكانتها، وأثرها في مجال علوم اللغة والنحو والبلاغة، والنقد. كانت الحركة العلمية في هذه الجوانب متناسقة مع ما يجري في المشرق، وكان علماء ذوو شأن يفدون إلى الأندلس أو يستقدمون، كما كان طلبة العلم والمستزيدون من العلماء يقصدون إلى المشرق: حرصاً على الرواية، ورغبة في لقاء العلماء، وتحصيل علم جديد، وأسهم هؤلاء في نقل الكتب الغالية، والثمينة.

وتحدّثنا كتب التراجم وغيرها عن أثر المؤدّبين والمعلمين، وكبار الأساتذة أيضاً في إضفاء جوّ غزير الفائدة من إشاعة العربية والحرص على علومها، ومن انتشار العربية العالية في العرب والبربر والإسبان الذين ظلّوا على ديانتهم القديمة والمولّدين الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد.

ولا ينسى أثر أبي علي القالي البغدادي وما أفاضه من جوّ علميّ وثقافي عام في جوانب اللغة والنحو والأدب وغيرها، وما خرّج من أصحاب وتلامذة [1].

[1]- كتاب طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي وهو تلميذ القالي وصاحبه

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوّق عليه وقد دخل كتاب سيبويه وكتب النحو المهمة دون إبطاء، وظهر فيهم نحويون مشهورون، وشاعت كتب نحو أندلسية، واشتهرت في المشرق والمغرب معاً.

وتبرز أسماء الإفليلي، وابن السيد البطليوسي، واين الباذش والسّهيلي، والشّلوبين، وابن خروف، وابن مضاء القرطبي صاحب الكتاب المشهور (الردّ على النحاة)، وابن عصفور، وابن مالك الملقب بـ(ملك النُّحاة).

وأثبت الاندلسيون لأنفسهم اسماً في الدراسات البلاغية والنقدية. فممّن اشتغل بالبلاغة ابن عبد الغفور الكُلاعي صاحب (إحكام صناعة الكلام)، والمواعيني (ت 564) صاحب الريحان والرّيعان، وابن رشد الذي تلتحم البلاغة عنده بالفلسفة، وهو الذي لخّص كتابي (الخطابة) و(الشعر) لأرسطو. وفيهم أبو البقاء الرّندي صاحب كتاب (الوافي في نظم القوافي).

ومن النقّاد في الأندلس: ابن شُهيد، وبن حزم والكلاعي، والرّندي الذي استفاد من ابن رشيق، وابن السراج الشنتريني وحازم القرطاجنّي صاحب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء).....

وكان الأندلسيون يفيدون من الدراسات النقدية والبلاغية في المشرق، ويفيدون من كتب أرسطو المترجمة.

- **أما المناهج الدراسية في الأندلس فقد أشار إليها ابن خلدون بقوله:**

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتابة وجعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم الولدان رواية الشعر، والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجربة الخط والكتابة... إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شد بعض الشيء في العربية والشعر وأبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة [1].

[1]- ابن خلدون: المقدمة جـ2 ص1240.

واهتم خلفاء بني أمية في الأندلس بتأسيس المكتبات فنقلت من كتب الشرق العربي الشيء الكثير من الكتب وشارك الرحالة من الأندلسيين في ذلك وقام العلماء وطلاب العرب في نقل الكتب وأقبلوا على ترجمتها في مختلف صنوف العلم والمعرفة فيذكر ابن جلجل: أن الكتب الطبية دخلت من المشرق وجميع العلوم على عهد الخليفة الناصر سنة 300هـ- 350هـ[1]. وأنشأ المستنصر بالله 350- 366هـ/ 961- 976 مكتبة عظيمة فقد كان عالماً منصرفاً إلى العلم والقراءة واقتناء الكتب النادرة من بغداد ودمشق والقاهرة، وأنشأ مكتبة تحوي على ما يربو على 400 ألف مصنف في شتى العلوم والفنون، كما أنشأ داراً لنسخ الكتب وأودعها بمدينة الزهراء [2].

كما ألف الأندلسيون في علوم القرآن والحديث والفقه، وفي القضاء واللغة وآدابها وعلومها والمعاجم والتراجم، والتاريخ والسيرة والجغرافية، وألفوا في علوم الطب والحساب والهندسة والفلك والكيمياء والمنطق والفلاحة والملل والنحل، وفي الفلسفة والموسيقى، بحيث لم يتركوا حقلاً من حقول العلم والمعرفة إلا طرقوها [3]ذ. وقد برز جملة من العلماء نذكرهم على سبيل المثال لا الحصر منهم عبدالملك بن حبيب السلمي (ت238هـ) ألف كتابه الموسوم (التاريخ) مخطوط ومحفوظ في مكتبة البودليانا في أكسفورد تناول فيه تاريخ العالم من بدء الخليقة حتى فتح الأندلس وإلى عصره هو [4]. والعالم اللغوي أبا علي القالي الذي وفد على الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر سنة 330هـ وأصله من العراق، ومن أهم أعماله كتاب (الأمالي) وهو عبارة عن محاضرات أملاها على

---

[1]- ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ص98

[2]- العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي ص420

[3]- كريم عجيل: الحياة العلمية في بلنسيه ص263

[4]- خير الله طلفاح: حضارة العرب في الأندلس ص153.

تلاميذه الأندلسيين في مسجد قرطبة، ويتضمن فصولاً عن العرب ولغتهم وشعرهم وأدبهم وتاريخهم وألف أبو بكر محمد المعروف بابن القوطية (ت367هـ) كتاباً في تاريخ الأندلس أسماه (تاريخ افتتاح الأندلس) نشره المستشرق الأسباني جوليان رايبيرا سنة 1868م، وله كتاب في النحو يعرف بكتاب الأفعال [1] ومن شيوخ ذلك العصر العالم المغربي محمد بن حارث الخشني (ت361هـ) الذي ألف كتاب (القضاة بقرطبة) تناول فيه الحياة الاجتماعية في الأندلس نشره المستشرق الأسباني ريبيرا [2] وألف ابن حزم العديد من الكتب في أنساب العرب، وفي علماء الأندلس، وفي تاريخ الأديان وأبرز ما ألف في هذا المجال هو كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) [3].

ومما ساعد على انتشار الكتب وازدهار الحياة العلمية انتشار صناعة الوراقة في الأندلس حيث تولى الوراقون نسخ ما يظهر من مؤلفات، كما اشتهرت الأندلس بمصانع الورق، وتميزت بهذا الانتاج بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة، وشاطبة، وقد حاز مصنع شاطبة شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد [4]. وقد نقلها عرب الأندلس من بغداد التي أنشئت عام 794م كما انتقلت منها بواسطة عرب صقلية والأندلس إلى أوربا [5].

واتجه أهل الأندلس الذين اعتنقوا الاسلام خاصة إلى تعلم العربية وإلى إقبالهم على تعلم العلوم الاسلامية، واتسع بمرور الزمن عدد الداخلين في الاسلام وأخذ طلاب العلم يرتحلون بشكل خاص إلى الجامعات العربية في

---

[1]- العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي ص420

[2]- المصدر السابق ص421.

[3]- آنخل جنثالت بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مونس ص221

[4]- عبدالرحمن الحجي: الكتب والمكتبات في الأندلس ص361 مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد الرابع،

[5]- يوسف شويحات العزيزات: دور العرب في ثقافة العالم وحضارته ص170

الأندلس والاختلاط بالسكان مما ساعد على انتشار اللغة العربية، ونتج عن ذلك ظهور لغة عربية عامية دخلتها بعض الكلمات الأسبانية [1] كما نتج عن انتشار اللغة العربية بين الأندلسيين اختراع فن شعبي أندلسي جديد، هو فن (الموشحات) ويقال: إن مخترع هذا الفن رجل ضرير من بلدة قبره Cabra بجوار قرطبة اسمه مقدم بن معافى القبري الذي عاش في أواخر القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي، وإذا كان المشرق العربي قد أعطى مغربه فن القصيدة الشعرية، فإن المغرب العربي، وأعني الأندلس، قد أعطى المشرق العربي فن (الموشح) ويلاحظ في الموشح أنه لم يلتزم بنظام القوافي الموحد كالقصيدة الشعرية، وإنما اشتمل على قوافي متعددة كذلك لم تكن وحدة البيت الشعري، وإنما المقطوعة الشعرية التي تتكون من غصن وقفل، ويسمى القفل الأخير بالخرجة، والتي تكون باللغة العامية الدارجة، ولم يلبث هذا الفن الجديد أن انتشر في المغرب والمشرق، وتفنن الشعراء في صياغته حتى صارت الموشحة كالقصيدة الشعرية واستخدمه الصوفية في مدائحهم وأذكارهم.

وقد أثرت الأغنية الشعبية العربية في الشعر الأوربي باسم الشعر البروفنسي الذي كان ينشده المتروبادور أي (المغنون المتجولون) في جنوب فرنسا وايطاليا وأسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية، واستحدثوا فناً آخر سموه (الزجل) وجاءوا فيه بالغرائب، وهذه الطريقة الزجلية هي فن العامة بالأندلس، وهم ينظمونه في سائر البحور للخمسة عشر بالعامية.

وكان كبار العلماء والأدباء والشعراء يلتقون في قصور الخلفاء والأمراء في الأندلس فكانت بمثابة منتديات زاهرة، ومجامع للعلوم والآداب والفنون.

[1]- طلفاح: حضارة العرب في الأندلس ص150

ولمع فحول الشعراء والأدباء العرب في الأندلس كابن عبد ربه وابن حزم وابن زيدون وابن خفاجة وكانت النتيجة من إزدهار الحياة الأدبية أن انتشرت اللغة العربية والثقافة العربية والعادات والتقاليد العربية الاسلامية في أوربا وقد زخرت الألفاظ العربية في اللغة الأسبانية والقونية والفرنسية [1] حيث أقبل أهل الذمة من الأندلسيين على تعلم العربية ويبدو أن الاستعراب كان قد سبق الاسلام، فقد اختلط أهل الذمة بالمسلمين، وأخذوا لغتهم وأسلوبهم في الحياة، وأقبلوا بصورة تدريجية على الاسلام وأظهروا تفوقاً في العربية بل تفوق منهم في الفقه فذكر ابن الفرضي (أنه كان من مسالمة أهل الذمة من ملأ أشبيلية علماً وبلاغة ولساناً حتى شرفت به العرب) وقد أثار اقبال المسيحيين على الثقافة العربية حسد القساوسة ورجال الدين الذين كانت لهم أديرة وكنائس في شتى أنحاء الأندلس فأخذوا يعيبون على الشباب المسيحي اقباله على قراءة اللغة العربية وتركه اللغة اللاتينية [2].

3- النظـــــــــــرة الحضارية العمرانية

واشتهرت الأندلس بالمنشآت المعمارية العظيمة، ويعد جامع قرطبة الذي بني في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، وبعض المباني في طليطلة من آثار الدور الأول لفن العمارة العربي في الأندلس، كما تعد منارة أشبيلية (لعبة الهواء) التي أنشأها الموحدون في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد والقصر الأشبيلي من آثار الدور الوسيط لفن العمارة العربي، كما يعد قصر الحمراء في غرناطة الذي شيد في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد عنواناً لما انتهى إليه فن العمارة العربي ويرى لوبون أنها تدل باختلاف طرزهما على أصالتها العربية.

---

[1]- المرجع نفسه ص 150

[2]- يوسف شويحات العزيزات: دور العرب في ثقافة العالم وحضارته ص170.

ومن مباني العرب العظيمة في الأندلس مدينة الزهراء التي شيدها عبدالرحمن الناصر على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس ومازالت تحتفظ باسمها العربي في اللغة الأسبانية، وبنى فيها قصره المشهور بقصر الحمراء [1]. وظهرت فيه عظمة فن الهندسة عند العرب، وفن الزخرفة والنقوش والنحت، وقد وصفها الأدريسي بقوله: وهي (الزهراء) مدينة عظيمة مدرجة البنية، مدينة فوق مدينة، وفيها قصور يقصر الوصف عن صفاتها.

ويروى ابن عذاري: أن أعمدة الرخام في الزهراء بلغت حوالي 4313 سارية جلبت من قرطاجة وتونس والقسطنطينية وما وجد في أسبانيا. ومن المباني التي تركها العرب في أسبانيا جامع قرطبة الشهير الذي بدأ بانشائه عبدالرحمن سنة 164هـ/ 780م، وهو من أجمل المباني العربية في أسبانيا، وكان يفوق جميع مساجد ومعابد الشرق قاطبة بعظمته وروعته، ولا يزال جامع قرطبة من المباني المهمة مع ما أصيب من التلف وما فقد من الأشياء الثمينة فيه [2].

ونتيجة لكل هذا أن تاريخُ الأندلس عبرة لمن يعتبر؛ ثمانمائة سنة من العلو والانخفاض والصعود والهبوط، تعاقب على الأندلس أمراء وولاة عهد وخلفاء وملوك طوائف، وكل هذا التراث الهائل من المنجزات والتطورات أصبح في أيدي النصارى الصليبيين الذين صاحبوا السهر ورافقوا التعب والشدة حتى وصلوا إلى ما يريدون.

ولا نريد نعدّد أسباب سقوط الأندلس لأنها معروفة عند كل أحد. ولكننا تجدنا في حيرة من أمرنا لا نعرف ما فعل الله بهؤلاء الأقوام الذين بُدلوا من بعد نعمة خوفًا.

---

[1]- خير الله طلفاح: حضارة العرب في الأندلس ص153

[2]- المرجع نفسه ص 153

إننا كمسلمين أحرار نبكي على مجد أسلافنا المسلمين الذين أراقوا دماءهم زكية على ثرى الأندلس؛ لقد عطروا ذكرهم في صفحات التاريخ بتلك التضحيات التي لم يكن يعرف العالم مثلَها في زمن من الأزمان، ثم نحن بعدُ نعيد سيرةَ من هدم بناء المسلمين، أولئك الملوك الأقزام آمالهم الحقيرة التي لا تتعدى مواطئ أقدامهم، كيف يطيب لنا الطعام وأجزاء من بلاد الإسلام تتجرع غصص الاستحلال والمذابح الجماعية والقتل أو التهجير.

إن الأندلس لم تذهب من أيدينا بين يوم وليلة، إنها قرون حتى سقطت، وهذا يدل على طول نفس أولئك الأعداء الذين ما فتئوا يزعزعون كيان الدولة حتى تساوت مع التراب.

وكذلك يجب علينا أن نكون أكثر واقعية.. أن نراقب الساحة، فإذا جاءت ساعة الصفر انطلقنا إلى مكاننا الأصلي فوق القمة لنحكم العالم وفق شرع الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم–.

المصـــــــــادر والمراجع:

1 – ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (عيون الأنباه في طبقات الأطباء)، مطبعة الحياة بيروت 1965.

2 – ابن جلجل أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي (طبقات الأطباء والحكماء)، القاهرة 1955.

3 – ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد (المقدمة) تحقيق علي عبدالواحد، القاهرة 1962.

4 – ابن عذاري أبو عبدالله محمد المراكشي (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، طبعة دوزي ليدن 1/1م.

5 – بالتشيه انخل جنثالث (تاريخ الفكر الاندلسي) ترجمة حسين مؤنس للقاده 1955.

6 – الحجي عبدالرحمن (الكتب والمكتبات في الأندلس) – مجلة كلية الدراسات الاسلامية/ العدد الرابع بغداد 1972.

7 – طلفاح خير الله (حضارة العرب في الأندلس) دار الحرية بغداد 1977.

8 – الطويل توفيق (العرب والعلم في عصر الاسلام للذهبي) دار النهضة العصرية 1961.

9 – العبادي أحمد مختار (في التاريخ العباسي والأندلسي) مطبعة دار النهضة بيروت 1971.

10 – عجيل كريم (الحياة العلمية في مدينة بلنسية) مؤسسة الرسالة بغداد 1975

11 – العزيزات يوسف شويحات (دور العرب في ثقافة العالم وحضارته).

12 – لوبون غوستاف (حضارة العرب) ترجمة عادل زعيتر نشر مطبعة البابي الحلبي 1969.

13– محمد رضوان الداية(في الأدب الأندلسي)، دار الفكر المعاصر بيروت– لبنان– دار الفكر دمشق –سورية– 2000م.

14 – المقري أحمد بن محمد (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) القاهرة 1949.